

خاتم النبيين: خلقه وخصاله

كان مولد النبي الخاتم محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في مكة يوم الاثنين، اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل الموافق لسنة سبعين وخمس مائة (570) المسيحية. وُلِدَ يَتِيمًا فَقَدَ ثَوْفِي أَبِيهِ عَبْدَ اللَّهِ قَبْلَ وَلادته، ولما كان ابن ست سنين قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ فِرَاقِ أُمِّهِ الْحَنُونِ أَمَنَةً حَيْثُ مَاتَتْ بَكَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، اسْمُهُ الْأَبَوَاءِ. وَكَانَ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَاصْطَفَى قَرِيشًا مِنْ كَنَانَةِ، وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشَ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَى النَّبِيَّ مُحَمَّدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ. (مشكاة المصابيح: 511، صحيح مسلم)

Visit
www.scribd.com/musarhad
for more articles on Islaam.

وبعث كالنبي وقد سادت الجاهلية والهمجية والشرك بالله جزيرة العرب. فكانوا يؤمنون بالله ويتضرعون إليه حينما أصيبوا بداهية فلم يجدوا أي مولى ولا نصير، وفي أيام السراء ينسون الله ويعبدون الأصنام الحجرية ويقربون قربانا لها. وكانوا يظلمون الضعفاء والعبيد ويأكلون أموال اليتامى، والضعفاء كذلك يقتدون بطغاتهم ويعبدون طواغيتهم ويعرضون أنفسهم للظلم والجور، وكانوا لا يجدون سبيلا لتحرير أنفسهم من عدوان الكبراء. فجاء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لإنقاذ الضعفاء من الخضوع للكفرة الطغاة ولإنقاذ الكبراء من الخضوع للطواغيت والشياطين.

فإذا تلقى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الوحي من جبرئيل أول مرة في غار حراء، خاف على نفسه و قال لزوجته خديجة: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي"، فسألته خديجة وقالت له: "كلا! والله، ما بخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحلل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق."

وكانت خلقه وشماله جعلت خديجة والسابقين الأولين من المسلمين يتقون به، فأمنوا به واحتملوا أذى المشركين وتعذيبهم بصبر جميل ما لم يشهد بمثله التاريخ البشري. فكان رؤوفا شفيقا لئن الجانب رقيق الخاطر، و كان هذا من منح الله لنبيه الخاتم حيث قال: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ." (آل عمران: 159) فيها نحن نعرض بعض خصائله فيما يأتي تحت عناوين مختلفة:

رغبة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن الدنيا وزهده فيها

كان رسول الله محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يحب أن يكون خفيف المال حتى لا تشغله الدنيا عن عبادة الله عز وجل. فكان يدعو الله أن يجعل رزقه كفافا ورزق آله قوتا، فأحببت دعوته كما أخبرت عائشة - رضي الله عنها - : "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." (مشكاة المصابيح ص446، متفق عليه).

ودخل عمر - رضي الله عنه - رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه. (كان) متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف. فقال عمر: "يا رسول الله! أدع الله، فليؤسغ على أمّتك، فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله." فقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. (وفي رواية قال:) أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة." (مشكاة المصابيح ص447، متفق عليه).

شفقته ورحمته للناس

قد وصفه الله بأنه يعزُّ عليه ما يعنت المسلمين ويحرص على نفع المسلمين ويرأف بهم و يرحمهم. فكان في مجلسه متواضعا، يخالط الناس فيسمع منهم ما يسرهم وما يحزنهم وما يصيبهم من الفوز والفشل. وكان إذا صافح أحدا لا يسأم من كلامه ولا يكون هو أول من ينزع يده. و كان في حاجة الضعفاء والإماء والأرامل والعجائز مستعدا، ولم يكن يسأل ويطلب منه شيء فيقول: لا. ويمازح الصبي أيضا كما قال لأخي أنس الصغير: "يا أبا عمير! ما فعل النغير؟" (السيرة النبوية لأبي الحسن علي الحسني الندوي: 430، الأدب المفرد: 40).

و كان يعامل المسلمين معاملة الأب لعياله. فبينما كان لا يقبل على أموال الموتى من المسلمين فيجعله لورثة الميت من عصبته وذوي أرحامه، فقد كان يحمل على نفسه قضاء دين من مات وماله لا يفي بالدين.

رقة الشعور الإنساني

كان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صابرا قوي القلب وقوي الجسد كما هو شأن أولي العزم من الرسل، فإنه احتمل كثيرا من الخطوب ودواهي الدهر في الثلاثة والعشرين سنة التي دعا الناس فيها إلى عبادة الرحمان وترك الأوثان، ولكن لم يخل قط عن رقة الروح الإنسانية. فروي عن أسامة بن زيد: "رُفِعَ إِلَيْهِ (النبي) ابن ابنته وهو في الموت، ففاضت عينا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال له سعد: ما هذا، يا رسوا الله؟ قال: هذه رحمة جعله الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء." (رياض الصالحين: 389، متفق عليه).

وذرفت عيناه حين رأى ابنه إبراهيم بن محمد وجود بنفسه، وقال كلمة بليغة تمثّل عواطفه النبيلة، فقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون." (رياض الصالحين: 389، متفق عليه). ولما كانت غزوة أحد استشهد سبعون من المسلمين، ومن أكبرهم منزلة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأخوه من الرضاعة الذي دافع عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في مكة وغضب له. ومثّل حمزة بفقرت هند بنت عتبة عن كبد حمزة فمزغتها، فلم تستطع أن تُسيغها فطرحتها (ابن هشام، السيرة النبوية لأبي الحسن علي الحسني الندوي ص238). ولكن لم نسي النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قتل أحد طوال حياته حتى قال عن جبل أحد غير مرة: "هذا جبل يحبنا ونحبه." (البخاري، السيرة النبوية ص436).

ولما مرَّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بدار بني عبد الأشهل، وهو يَقُولُ من غزوة أحد، فسمع نساءً هن يبيكين ويبحن على قتلاهم، فلم يملك عينيه وقال: "لكن حمزة لا بواكي له." فبدأن النَّوَاحَ على حمزة والنَّواح لا يجوز في شريعة الإسلام فمنعهن من البكاء. ولما فتح الله للمسلمين مكة جاء وحشيُّ بن حرب قاتلُ حمزة وغلَامُ جبير بن مُطعم، وأسلمَ فَقَبِلَ منه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إسلامه، وسمع منه قصَّةَ قتلِ حمزة فتحرَّكَ فيه الشعور الإنسانيُّ النبيل من غير أن يرفضَ إسلامه أو يقتله شفاءً لنفسه وإبراداً لثوره وغضبه، ولكن قال:

"وبحك! غَيَّبَ عَنِّي وجهك، فلا أَرَيْتُكَ." (ابن هشام، السيرة النبوية ص437).

عفوهِ وحِلْمُهُ

كان كثير العطاء وبالغ الحلم والعفو، يعفو عن أعدائه ويحلُّم إذا يُجهَلُ عليه ولا ينتقم لنفسه، فقد لقيَ من جفاء الأعراب ما يُثيرُ الغضب في أكبر الحلماء ولكن عفا وغفر. وكان معلِّماً شقيقاً رفيقاً يودِّبُ أصحابه ولا يُؤيِّخُهم. ورؤي كثيرٌ من الحوادث والأخبار بأسانيد متصلةٍ صحيحةٍ يشهدُ بحلمه وأنانيته.

فمنها ما رُوي عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله وعليه بُردٌ نجرايُّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فحبذه بردائه حبذةً شديدةً، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبي، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة حبذته، ثم قال: يا مُحَمَّدُ! مَرُّ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتُ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء. (البخاري، السيرة النبوية ص439). وروى أبو هريرة قال: بال أعرابيٌّ في المسجد فقام الناس إليه، ليقعوا فيه، فقال النبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من الماء أو دَنُوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا مُعسرين. (البخاري، السيرة النبوية ص440).

وخدمه أنسٌ عشرَ سنينَ فما قال له قط: "أف"، ولا "لما صَنَعْتَ؟"، ولا "ألا صَنَعْتَ؟" وهذا أمرٌ عظيمٌ فإنَّه يمكن الحلمُ أمام الشعب لكثير من القادة والرُعاء، ولكن يصعب لهم في منازلهم لأن حياتهم فيها لأربع وعشرين ساعةً، ولا يمكن الضبط كلَّ هذه الساعاتِ إلَّا لِمَن خَصَّه الله بفضله العظيم واصطفاه من بين الخلق كلِّه فجعله سيِّدَ الأوَّلين والآخرين. ومن حلمه عفوهُ عَمَّنْ أراد قتلَه، وهو نائم وكذا أصحابه نائمون ولكن مَكَّنَ الله رسولَهُ منه فعفا عنه. روى جابر قال: غزونا مع رسول الله غزوة نجد، فأدركته القائلة، وهو في واد كثير العضاة. فنزل تحت سَمَرَةٍ، واستظلَّ بها، وعلَّق سيفه، فتفرَّق النَّاسُ في الشَّجَرِ يستظلُّون. وبيننا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فجئنا، فإذا أعرابيٌّ قاعد بين يديه، فقال: إنَّ هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي فاستيقظتُ، وهو قائم على رأسي مختلطٌ صلتاً، قال: من يمنعك مني؟ قلتُ: الله! فشامه (رَدَّه إلى غمده)، ثم قعد، فهو هذا، قال: ولم يعاقبه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قُصَاةُ الكلام

إن الله سبحانه مدح نبيَّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فقال: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** (القلم:4). فالله العليُّ الكبيرُ مالكُ الكون كله مدح عبده - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بهذا الحمد السامي، والنبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تلقَّى هذا الوسامَ في توازن وتماسك القلب وطُمأنينة الكيان. لا ارتفع ولا تكبر ولا نسيَ عبودِيَّته. وهذا ما لا يملكه أيُّ تصوُّرٍ بشريٍّ. كيف، وإنه لا وجودَ فوق وجود الكبير المتعال، ولا كلامَ أصدق ولا أكثر شيوعا من القرآن العظيم. وهو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مذكور فيه بهذا الوصف الفخيم القدِّ.

ومن عظمة شخصه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه تلقَّى آياتِ المؤاخذه والعتاب له من الله بنفس التوازن والثبات والتماسك والأمانة حتَّى تلاهن أمام الأَشْهاد من الصحابة الأوفياء والأعداء الألدَّةِ نحو الآياتِ الأوَّل من سورة التحريم وسورة عبس. فَيُعْلِنُ هذا كما يُعْلِنُ ذاك ولا يَكْتُمُ شيئاً كما هو مرجوٌّ من المبلِّغ الأمين والنبي الصادق.